قصة قصيرة

أزمنة الموت.. والحلم

سباعي عثمان

قال الراوي: حلمت ـ يا سادتي ـ ليلة البارحة.. رددها ثلاثاً، ثم توقف للحظات.. اجتاحه شرود، أفقده التركيز بعض الوقت.. تردد، في محاولة لاستدعاء ذاته الهاربة.. لا... لا.. معذرة.. أظنه قال: «أحلم ـ يا سادتي ـ».. رددها ثلاثاً، ثم استدرك: ليس تماماً.. ربما، كما يأتي المرء ـ منا ـ آت، وهو بين اليقظة، والمنام.. غيبوبة ما.. نعم.. هو كذلك.. أطرق قليلاً، وهو يحتضن رأسه بين راحتيه.. أحس كأنه يتطوح في بئر عميقة. رحلة مجهولة.. لا يكاد يذكر لها بداية، ولا نهاية.. حدق في الفراغ، طويلاً.. كان متوتراً، وفي نفسه ـ ربما يقصد، «في ذهنه» ـ صخب، يصم أذنيه.. تماماً، هذا ما يقصده بالضبط. أحس كأنما هو آت من وراء شيء كبير.. كبير، قدرت أنه الكون، مثلاً، لا يمكن أن يكون أقل من ذلك، فيما أتصور.. قال: كأن فترة ما، مفقودة من ذاكرتي، أحدثت خللاً ـ أظنني أعني: «فجوة» ـ في مسيرة حياتي.. ماتت في داخلي.. تجاوزتها بكيفية ما.. ساعة.. ساعتان.. شهر.. سنة.. سنتان.. الله أعلم...

في بعض هذا الغياب، لم أكن أنا.. أنا.. كان في معيتي «أنا» آخر.. أعتقد أنه مشطور عني.. ربما كنت، أنا ذلك «الأنا الآخر».. نفسه... لا أدري.. لا أدري..!

نفض رأسه، بعصبية، وعاد يغرق في الفراغ.. نعم، هو كذلك.. وجدتني أعجز عن الاحاطة بأشياء كثيرة.. أمكنة، وأزمان عشتها.. هي، حلم.. ربما.. هي، حقيقة.. ربما.. الواقع أنني أتطوح في متاهة بلا حدود.. أحس أنني قفزت حوائط، ضخمة.. قلاعاً خرافية... أسماء غريبة، وأخرى غامضة.. وجوه كثيرة.. بعضها جماجم، لكنها تنبض بالحياة... تتلامع في مخيلتي صور متلاحقة.. تتلبس بعضها في لا مكان، ولازمان.. تموت.. تحيا.. تتفكك.. تتحرك.. تجمد.. بعضها مشروخة.. بعضها يتماوج، كما لو كانت أجساماً، ساكنة، متحركة، تحت الماء.. ما الحقيقة ما الحلم.. ما اليقظة.. ما النوم.. ما الموت.. هه؟.. أوه.. أسئلة كثيرة.. تتشابك.. تتبدد.. أعصر ذهني.. أستحضر ذاكرتي.. أخضها.. أبعثر ركامها الهائل.. أجوس خلالها.. أجد الزمن يتبخر فيها بدداً.. بدداً..!

* * *

قال الراوي: فقدت ـ يا سادتي ـ علاقتي بالأشياء، في ذلك الغياب العجيب.. فلما استعدتني ـ أظنه قال: «فلما عدت».. لا.. لا... معذرة.. كأنه قال: «فلما استفقت».. نعم.. تماماً.. هذا ما قاله بالضبط ـ قال: فلما استفقت، عجبت من ذلك كله، رغم عجزي عن تمثله، ثم صارت أحداث ذلك الزمن الغائب تفاجئني بين حين،

وآخر.. في بعضها ـ مثلاً ـ رأيت «الحارث بن حلّزه»... هكذا..!.. تصافحنا.. قلت له: «أهلاً بك يا حارث».. هكذا، دون ألقاب.. لم تحجبني عنه أية كلفات، أو حواجز.. أعرفه منذ زمن طويل.. تزاملنا في المرحلة الثانوية.. كان قد كبر، وغزا الشيب رأسه... تبادلنا أحاديث شتى، استعدنا فيها أحلى الذكريات... ونحن في بعض هذا الحديث، فجأة، تلبسه وجه «هاملت».. يصول، ويجول على خشبة مسرح خرافي بلا جمهور: «إني لأتساءل، ما إذا كنت حقاً موجوداً في هذا الوجود، أم غير موجود، فأي من الحالتين أمثّل يا ترى.. أأستكين للرجْم والمظالم.. أم أنهض لمقاومة المصائب، ولو...!»[1] لكن سرعان ما غلفه صدى صوته المنفعل، الراعش.. فجأة تداخل ـ ببطء ـ في وجه، لم أتبينه.. بدآ يتنازعان شخصية مهزوزة.. كان «الحارث بن حلزة»، وآخرون، يتبددون بينهما.. يتبخرون، وأتبخر أنا.. أكاد أنام.. أصحو.. أكاد أكون لا شيء.. لست في ذات الزمان.. لست في ذات المكان.. أوه.. نسيت أن أقول لكم: أنني ـ في بعض هذه التحولات ـ رأيت المغني «زرياب»، في مجلس فخم، يبحر في موال من «الأوف»، «والميجنا»، و «هولو» الخليج، يُودعُه رحم الليل.. هزني الطرب وسط حضور غائم في دخان عود مُعَطر.. كدت أصرخ: «أوف.. أوف»، لكنني خشيت أن يتبدد صوتي في عالم، لست فيه.. وجوه كثيرة، وجماجم، تتمايل طرباً.. تختلط.. تَتَبخّر.. أجدني أقف على باب قصر الرشيد... هكذا.. أظنني دفعت الحاجب بجلافة، ودخلت.. وقفت أمام الخليفة، في دهشة من حضوره، كأنني مبعوث رسمي.. قلت له:

«يا أمير المؤمنين.. أدام الله عزك.. لقد أضعنا مجدنا».. واحتبست الكلمات في حلقي.. بعد ثوان، تابعت: «نعم ـ يا أمير المؤمنين ـ أصبح كأن لم يكن.. ما كنا أمناء على ما ائتمنتمونا عليه..!».. وبكيت.. بكيت.. ثم تابعت: «ليتك تستطيع أن تجيء إلينا، وترى ما صرنا إليه من هوان..!»...

لا أدري.. لماذا شكوت إليه، هو، بالذات، دون غيره... فجأة تبدل وجهه... استشاط غضباً.. ارتبكت... أظنني أسأت الأدب.؟ كنت منفعلاً... قال: «أخرجوا هذا المعتوه من مجلسنا...!».. بَدَا عليه، أنه لم يصدقني.. لا أدري لماذا...؟.. وفيما أنا بين أيدي حُجّابه، خرج علينا رجل من رحم الزمن، على صهوة جواد.. بدا متوتراً.. كأنه كان على سفر، واستُدْعي... كان قلقاً.. قال لهم: «اتقوا الله في الرجل، وكفوا عنه»... حررني من بين أيديهم، وربت على كتفيّ، بين دهشة الحاضرين.. عجبت من أمره.. سألته: «من أنت..؟».. تبسم، في كبرياء، ولم يجب.. لكنني أحسست به.. لم يكن وجهه غريباً عني.. سرحت ببصري، أبحث عني.. أبحث عنه.. استدعيته.. استدعيت حضوري.. بدوا لي.. بعيدين.. بعيدين.. عصرت ذهني.. حضرت، أستَلُّ نفسي من غور بعيد، ضارب في الزمن الآتي.. انفرجت أساريري... قلت له: «انتظر، يا سيدي.. أرجوك، لا ترحل... آه.. أظنني عرفتك.. أو لست «المتنبي»... نعم أنت، هو.. لقد كنا، معاً، دائماً.. إيه.. يا أبا الطيب.. يا صاحب «الليل، والخيل والـ...».. يا سقى الله ذلك الزمان، العامر بالخصب، والحب، رغم ما عانينا فيه من مرارة..!»..

صفّق الرشيد.. قال: «اخرجوا هذا المغرور من مجلسنا».. لكنه، كان قد غاب في غبار فرسه.. قال إنه متجهٌ إلى مصر.. توادَعْنا، وتواعَدْنا على اللقاء، عند الهرم الأكبر...!

لم يمض، من ذلك الحدث المثير، حين، حتى تبدّل الحال.. وقعت أحداث كثيرة، واجتاحنا وباء.. قالوا إنه «الطاعون»...! مات من مات، ونجا من نجا.. وهرب خلق كثير، وفقد آخرون...!... في زمن آخر ـ أظنه، ذات الزمن، لا أكاد أتبينه ـ كانت طائرات «هتلر» تقصف مدينة لندن، وكان رومل يزحف نحو العلمين.. كان «أبو الهول» يتحسس أنفه، الذي جدعه «نابليون»، وكانت كليوباترا، تبكي: «آه.. يا أنطونيو.. أنت تقهرني..!».. كانت هذه آخر كلماتها.. كان صوتها يتحشرج في حلقها.. في الصباح، كانت قد رحلت.. انتحرت بالسم.. وكان عسكر «بيبرس»، يجتاز باب زويلة إلى جهة غير معلومة.. بينما كان «امرؤ القيس» يغازل «فاطمة» عند سفح «عيبان» في الهاجرة... كانا يتعاطيان الحب في كؤوس من شعره.. ضغطت على صدغي بقوة.. كان رأسي مثقلاً، وكان جدي ـ وقتئذ ـ مستغرقاً في كتابه الأثير «كليلة ودمنة»، بحضور شديد.. كان لا يمل قراءته.. كان صوته يأتيني من بعيد.. من عالم، ليس، هو منه، ولست أنا فيه:

«قال: دَبْشَلِيم... ملك الهند، لِبَيْدَبَا.. رأس فلاسفته: أضربْ لي مثل الرجلين المتحابَّين، يقطع بينهما الكذوب، الخئون...!»[2].

ورشف رشفة ـ أظنها رشفتين ـ من فنجان الشاي المعتّق أمامه، وتابع: قال بَيْدَبا الفيلسوف: إذا ابْتُلِيَ الرجلان المتحابّان، بأن يدخل بينهما الخئون، الكذوب.. تقاطعا، وتدابرا، وفَسَدَ ما بينهما من المودّة..![3]..» حفظت هذا، على مدى أعوام، لكثرة ما تردّد في أذنيّ.. قلت لجدي: «هل تعرف بَيْدَبا، هذا..؟»... الواقع.. هذه هي المرة الأولى، التي خطر لي فيها، أن أسأله مثل هذا السؤال.. قال لي، وهو يبتسم: إنه «لم يزر بلاد السند، والهند في حياته، لكنه، سمع من شيخه، أنه كان رجلاً حكيماً.. بعيد النظر.. نافذ البصيرة..!» واستمر يقرأ: «ومن أمثال ذلك، أنه كان بأرض «دَسْتَابَنْدْ» تاجر مكثر، وله بنون..[4]». أغلق جدي كتابه، وقام يصلي العصر.. تفرّست في وجهه العامر بالخطوط، والتجاعيد، وقلت: ياه...! ترى.. كم من السنين، مشيت ـ يا جدي ـ تدبُّ على وجه الأرض.. ما أغنى ذكرياتك..!

تعجبت من صلابته، وقوته..

رحت أقرأ في وجهه حكايا عجيبة.. بعض لداته، مات، وبعضهم عجز عن الحركة، ومايزال ـ هو ـ قوّياً، وفيه طاقة تكفيه لسنوات أخرى.. يا له من رجل.. يا له من رجل..!

* * *

قال الراوي: أحلم ـ يا سادتي ـ ليس تماماً.. ربما، كما يأتي المرء ـ منا ـ آتٍ، وهو بين المنام، واليقظة.. أنهى جدي صلاته، ودعا دعاءه الأثير: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا، أو أخطأنا..».. ومسح وجهه بكامل راحتيه.. ثم استرخى، واستأنف قراءته: «قال: فلما أدركوا، أسرعوا إلى مال أبيهم ـ والكلام لبَيْدَبَا ـ ولم يحترفوا حرفة، تَرُدُّ عليه، وعليهم، فلامهم أبوهم، ووعظهم..»[5]... قلت له: «كيف أتعلم الحكمة يا جدي..؟» تبسم ـ في طيبة حانية ـ قال: «هذا ما لا سبيل إليه..!».. تعجبت.. أحْسسْت أنه يستصغرني... قال لي: «يا بني إن الحكمة لله يؤتيها من يشاء..!».. شعرت برهبة العبارة.. تأملتُ كلامه في حيرة.. خيل إليّ أنني أندفع في هوة عميقة.. لكنه نظر إليّ ـ في حُنوّ بالغ ـ وتبسم.. أحسست أنني ـ في هذه اللحظة ـ أقرب إليه من أي وقت مضى.. وقتها كنا ـ فيما يبدو ـ نتأهب للرحيل.. قالوا نصلي العشاء في مراكش.. ثم نستأنف رحلتنا إلى طليطلة.. قال أحدهم، لم أتبينه: «لم يدخلها طارق بن زياد، بعد...!».. قال آخر ـ أظنه «مارشال» معاصر، في جيش مهزوم، في الحرب العالمية الثانية ـ هكذا يبدو ـ قال: «لقد أفسد علينا طارق هذا رحلتنا..!».. دخل علينا وجه، صارم الملامح ـ في «زوم» بطيء.. تبعه صوته، ذو الصدى المتردد.. قال: «ما تريدون في طليطلة، والطرق إليها غير سالكة..!؟»... قلت لهم: «من هذا..؟» فاحتاروا.. ما كان معنا.. ولا كنا معه.. سألته في حيرة: «من أنت..؟»... نظر إليّ ـ في كبرياء ولم يجب.. قلت له: «هل أنت الحارث بن حلّزة..؟»... أظننا التقينا من قبل.. أليس كذلك..!؟»... ضحك.. قلت: «من تكون إذن..؟... فلا يمكن أن تكون نابليون.. أو حتى أنطونيو، مثلاً..؟»... قال ـ في كبرياء: «أنا طارق بن زياد...!»... وكما لو كانت موسيقى تصويرية صاخبة من أعمال «هايدن» ـ مثلاً ـ تتدفق، عقب مشهد مثير، أو ضربات طبل مسرحية، متعاقبة، قبيل فتح الستار، سيطر علينا جو من الدهشة، حبس منا الأنفاس.. كدت أسمع خفقات قلوب من حولي.. وما كدنا نفيق، حتى أعلن أحدهم ـ أظنه ذلك المارشال: ـ «أيها السادة.. هذا طارق بن زياد..!»، وأشار إليه.. فجأة... أحاط به صحفيون، ومصورون.. ما كانوا معنا.. بدوا، كما لو جاءوا من كوكب آخر... اضطرب المكان، وفقدنا بعضنا.. كان الزمن يدور، لحظتئذ، وراء الكون، في وقت ما، منه، ثم يتبدد، كأن لم يكن شيء:

في الصباح.. كانت صوره «طارق بن زياد» على أغلفة المجلات، وعلى صدر صفحات الصحف.. كان يتحرك في أيدي الباعة على الأرصفة، والنواصي».

«طارق بن زياد يتمرد على الخلافة في الشام..!»..

ضرب جدي كفا بكف.. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد جُنَّ ابن زياد..!»، وتوجس الناس خيفة على هذا القادم، في غفلة من الزمن، والأحداث.. قلت لجدي: «هل تعرف طارق بن زياد، هذا..؟»... تبسم، ثم أطرق قليلاً، كأنما يحاول تمثله في الذاكرة.. قال: «كان يكبرنا بسنوات كثيرة.. كنا أطفالاً، وكنا نسمع أهلنا يتحدثون عن

انتصاراته . . !» . . قلت له : «لماذا انتحرت كيلوبترا . . إذن . . ؟» . . قال : «تدللت على أنطونيو، حتى الموت . . حتى الموت . . هل فهمت . . . !؟ . . . أردت أن أقول له : «لم أفهم . . !» لكنني أحْجَمْت . . لا أدري لماذا . . ربما، لأنني لم أكن، فيما كان حينئذ . . أظن ذلك . . . !

* * *

قال الراوي : فلما تجاوزنا باب زويلة، خلف عسكر «بيبرس»، وودعناهم، حتى خارج المدينة . . جاءنا من يقول : «إن طارق بن زياد، قد أحيل إلى التقاعد . . !» . . دارت رؤوسنا . . أحسست أنني أفقد توازني، وأنني أسبح في فراغ لا نهائي . . فجأة . . تهدم ذلك المجد كله : «كيف حدث ذلك، يا ابن نصير . . !؟» . . قال جدي ذلك، كأنما يعاتبه . . ثم أضاف : «لا أدري . . ما الذي يحدث في هذا الزمان . . . ؟ . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . . !»، واحتضن رأسه بين راحتيه . . كان دوار عنيف، يعصف برأسي، حين جاء رسول القافلة يقول : «لقد جدع قصير أنفه، وأن «الزّبّاء» أغمدت خنجراً في صدرها، وقال بعضهم - رسول القافلة -: إنها تجرعت سُمّاً من خاتمها . . صرخت، في تلذذ : «بيدي، لا بيد عمرو . . !» . . حرمت ابن عَدِيّ من لذّة الانتقام . . ! قال جدي : «أيّ امرأة كنْتِها يَازبّاء !؟» . . وغاب الرسول، كما لو لم يجئ . . أحسَسْت أن بعض هذا الحوار غاب عني . . يبدو أنه تجاوزني، لا . . لا . . . معذرة . . أظنني، أنا الذي تجاوزته . . نعم . . هذا ما حدث بالضبط . . . !

دار الزمن، والْتفّ، وتداخل . . تماوجت الوجوه، والجماجم، ثم ما لبثت أن استقامت في عملية عجيبة، تجاوزت إدراكي . . لم يكن في وعيي سوى الدماء التي تتفجر من صدر «الزّبّاء»، وسوى الكلمات التي كانت تموت على شفتي «كيلوباترا»، ببطْء : «آه . . يا أنطونيو . . أنت تقهرني» . . ما كان أقساه، «أنطونيو، هذا . . ما كان أقساه . . !

في خارج المدينة . . كان عسكر «بيبرس» يتراءى، وهو يغيب في الأفق البعيد . . البعيد، في زمن يتنازع أوله، آخره . . زمن، ليست له بداية ولا نهاية . . !

جده .

(١) النص من مسرحية «هملت» ترجمة غازي جمال .
(٢، ٣، ٤، ٥) نص «كليلة ودمنة» .

دار الآداب تقدم

سلسلة بطولات عربية

- **لبيك أيتها المرأة**، بقلم سليمان العيسى.
- **الحدث الحمراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **ابن الصحراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **صلاح الدين الأيوبي**، بقلم فالح فلوح.
- **زنوبيا فارسة الصحراء**، بقلم فالح فلوح.
- **سيف الدولة الحمداني**، بقلم فالح فلوح.
- **معركة الزلاقة**، بقلم فالح فلوح.

دار الآداب ــ شارع اليازجي ــ بناية مركز الكتاب ــ ص. ب ٤١٢٣ ــ تلفون ٨٠٢٧٧٨